

العقلية الواعية على العبارة الشعرية غالبية على رأى النقدي عند ابن طباطبا،
تحقيقاً للفهم الذى جعله عياراً للشعر، وحُسن التأليف الذى هو سَمَت القصيدة
فى مبانيها ومعانيها.

الموضوع الرابع: عيار الشعر:

حاول ابن طباطبا وضع معيار للشعر تُعرف به مواطن الحُسن وسبل إدراكها.
فعنده أن «عيار الشعر أن يُورد على الفهم الثاقب، فما قبله واصطفاه فهو واف،
وما مجّه ونفاه فهو ناقص» (العيار ١٩). ويقصد بالفهم الثاقب الوسيلة القادرة
على التمييز بين الحُسن والقبيح من الشعر، ونلمح تقارباً أو توافقاً بين رأى ابن
طباطبا ورأى ابن سلام الجُمُحي فى طبقاته الذى أقام من حُسن العلم بالشعر
معياراً للنقد، وعلل ذلك بالعلل نفسها التى ساقها ابن طباطبا للتأكيد على
أهمية الفهم الثاقب فى تقويم الشعر. فكلا الرجلين فصل القول فى حواس
الإنسان وما تختص به كل حاسة فتُقبل على ما يلذّ لها وتألّفه، وتُعرض عما
تُفر منه وتتأذى به، ثم جعل ابن طباطبا الفهم الثاقب مختصاً بالشعر، وخص
ابن سلام نقد الشعر بحسن تعلمه وإجادة علمه عن طريق كثرة المدارس
ومداومة المعاينة والاستماع^(١). والفرق بين الرجلين فيما ذهباً إليه هو أن ابن
طباطبا حدد آلة النقد وهى الفهم الثاقب. وابن سلام عيّن السبل التى تُهىء
للقائد شحذ فهمه، وإقداره على التمييز بين الحُسن والقبيح.

ويزيدنا ابن طباطبا بياناً لما يأنس له الفهم أو يستوحش منه فيقول: «والفهم
يأنس من الكلام بالعدل الصواب الحق، والجائز المعروف المؤلف، ويتشوف
إليه، ويتجلى له، ويستوحش من الكلام الجائر الخطأ الباطل، والمُحال المجهول
المنكر، وينفر منه، ويصدأ له» (العيار ٢٠).

(١) انظر: طبقات الشعراء: ٢٧.

ثم يجعل علة كل حسن فى الاعتدال، وعلة كل قبيح فى الاضطراب، وهما صفتان جامعتان لما يصيب اللفظ والمعنى والقافية والوزن وكذا الصياغة وما تستقيم به فى الشعر. وأخذ فى شرح آثار الاعتدال والاضطراب فى النفس والفهم، وعواقب ذلك عليها

ويلفتنا ابن طباطبا فى شرحه إلى توزيعه عيار الشعر على الفهم فيما يضبط به الاعتدال أو الاضطراب، وعلى النفس فيما يُطرب أو يُقَلِّق، فيستشعره الفهم ويعلل له. كل ذلك متكامل فى بناء القصيدة بلا تجزئة تباعد بين العناصر المكونة للشعر، فلا مفاضلة بين اللفظ والمعنى، ولا استعلاء للوزن والقافية على ما سواهما، وقد عرض ابن طباطبا هذا التكامل عرضاً رائقاً واضحاً فى قوله: «والنفس تسكن إلى كل ما وافق هواها وتقلق مما يخالفه... وللشعر الموزون إيقاع يطرب الفهم لصوابه، وما يرد عليه من حسن تركيبه واعتدال أجزائه، فإذا اجتمع لفهم مع صحة وزن الشعر صحة وزن المعنى، وعذوبة اللفظ، فصفاً مسموعه ومعقوله من الكدر، ثم قبوله له، واشتماله عليه، وإن نقص جزء من أجزائه التى يكمل بها - وهى اعتدال الوزن، وصواب المعنى، وحسن الألفاظ - كان إنكار الفهم إياه على قدر نقصان أجزائه. ومثال ذلك الغناء المُطرب الذى يتضاعف له طرب مُسْتَمِعِهِ المتفهم لمعناه ولفظه مع طيب ألحانه. فأما المقتصر على طيب اللحن منه دون ما سواه فناقص الطرب» (العيار ٢١ - ٢٢).

وهذه هى العلة الأولى لحسن الشعر وعيارها الفهم الثاقب أو الفهم الناقد للشعر. فالعلة موضوعية، وعيارها قائم على الإدراك المدرب الواعي. ثم عرض ابن طباطبا علة أخرى لحسن الشعر «وهى موافقته للحال التى يعد معناه لها، كالملاح فى حالة المفارقة وحضور من يُكَبِّتُ بإنشاده من الأعداء، ومن يُسرِّبه من الأولياء، وكالهجاء فى حالة مباراة المهاجى والحطام حيث ينكى فيه استماعه له، وكالمراثى فى حال جزع المصاب، وتذكر مناقب المفقود عند تأيينه

والتعزية عنه... فإذا وافقت هذه المعانى هذه الحالات تضاعف حسن موقعها عند مستمعها، ولا سيما إذا أيدت بما يجلب القلوب من الصدق عن ذات النفس بكشف المعانى المختلجة فيها، والتصريح بما كان يُكتم منها، والاعتراف بالحق فى جميعها» (العيار ٢٣ - ٢٤). وهذه علة نفسية تحفز على قوة الاستجابة لمضمون الشعر، أو هى علة تراعى وقوع الشعر مطابقاً لمقتضى الحال فيعظم أثره فى النفوس، ويتضاعف حسن موقعه عند المستمع. ثم نبه ابن طباطبا على ما يمكن لهذا التأثير وبيعه سهلاً قوياً عند المستمع، وهو الصدق النفسى بكشف المعانى المختلجة فى النفس بلا تزيف أو إخفاء أو كذب.

وبهذا وضع ابن طباطبا للشعر معياراً لنقده وهو الفهم الثاقب، ثم حدد علتين لحسن الشعر وقبول الفهم إياه هما: الاعتدال، وموافقته لمقتضى الحال.

الموضوع الخامس: السرقات:

وقف ابن طباطبا من قضية السرقات موقفاً وسطاً بين استنفاد القدماء المعانى، والإقرار بما حازه المحدثون من لطيف أشعارهم، وبديع ما يُغربونه من معانيهم، وبلغ ما ينظمونه من ألفاظهم، ومُضحك ما يوردونه من نوادرهم وأنيق ما ينسجونه من وشئ قولهم. (انظر العيار ١٣) وكان له فى توسطه نظرات تراوحت بين التسجيل والتوجيه.

١ - أشفق على المحدثين من تأخر زمنهم «لأنهم قد سُبِقوا إلى كل معنى بديع، ولفظ فصيح، وحيلة لطيفة، وخلاصة ساحرة، فإن أتوا بما يقصر عن معانى أولئك [أى القدماء] ولا يُربى عليها لم يُتَلَقَّ بالقبول، وكان كالمطرح المملول». (العيار ١٣) ثم باعد بين القدماء والمحدثين فى الطبع ذاكراً أن المحدثين «أشعارهم مُتَكَلِّفَةٌ غير صادرة عن طبع صحيح كأشعار العرب التى سيلهم فى منظومها سيلهم فى مثور كلامهم الذى لا مشقة عليهم فيه» (العيار ١٣ - ١٤). وهذا من النقد التسجيلي.